

## البيئة الإسلامية

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

بمجيئ من عادة  
« الرسالة » في إخراج  
عددتها الهجري الممتاز  
أنها توجه قراءها في  
أحاء العالم الإسلامي  
العربي مرة في العام على  
الأقل إلى موضوع هو  
أجل ما ينبغي أن يشغل  
بال المسلم : موضوع

الإسلام والحياة به وله والجهاد في سبيله

والمسلمون اليوم ينقصهم مذكر مؤثر يذكرهم بدين الله  
ويحبه عليهم : حق العمل وحق الجهاد . والعمل هو من الجهاد  
أو هو أكبره كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع  
من إحدى غزواته : ( رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر )  
والمسلمون اليوم قد أضاعوا الجهادين ، فلا هم يجاهدون العدو  
فيؤدوا الجهاد الأصغر ، ولا هم يجاهدون النفس ويقومون بحق الله  
في أنفسهم وفي الناس فيؤدوا الجهاد الأكبر . وليس ينقص  
المسلمين العلم بما عليهم الله في أنفسهم وفي إخوانهم ، فإنهم يملكون  
من ذلك ما إن عملوا به لكفاهم ، ولكن ينقصهم العمل بما عندهم  
من العلم المستفيض فيهم

والمعجب من أمرهم اليوم أنه لا يحول بينهم وبين العمل  
المنجي إلا صفائر الشهوة يعجزون عن مخالفتها ، وحقائق المفريات  
يضمفون عن مقاومتها . وأعجب من هذا أن كثيرين منهم حين  
يطيمون المفريات يظنون بأنفسهم الحكمة ويحسبون أنهم يتابعون  
الصواب . وهذا شر ما في الأمر كله وأفظمه وأهوله ، فإنه يدل  
على مبلغ بعدهم عن الدين الذي ينتسبون إليه وقربهم من الشرك  
الذي يبرأون منه ؛ وظنهم هذا بأنفسهم يزيد في يأس اليائس  
منهم ويجعل عبء التصدي لهديتهم ثقيلًا لا يقوم به من

ولي العزم إلا من بلعظه الله بتوفيق وتأييد

وعبء رد العاصي إلى الطاعة والصال إلى الهدى والمخطئ إلى  
الصواب عبء ثقيل على أي حال ، لكن شتان بين من يقر بخطئه  
أو بمعصيته يود لو خرج من كل ذلك ، وبين من يجادل فيما هو  
عليه لا يرى به بأسًا إن لم يره عين الخير . فالأول ليس بينه وبين  
الطاعة أو الهدى أو الصواب إلا العادة ، وليس أمام العاصي إلا أن  
يحرك فيه دواعي التغلب على العادة ويدله على الطريق حتى يتغلب  
بالفعل ، فتقلب العادة عونًا له بعد أن كانت عونًا عليه . أما الآخر  
فأصعب الصعب في أمره إقناعه بخطئه أو ضلاله ، وتحريك عوامل  
الأسف والندم فيه حتى يصبح كأخيه ليس بينه وبين الاستقامة  
إلا أن يجاهد العادة حتى يصبح سلطانها معه بعد أن كان عليه  
والصنف الأخير من المسلمين قد أخذ يكثر كثرة تضيق  
منها الصدور وترتاع لها القلوب ، ولم يكن الحال كذلك منذ  
ثلاثين عامًا أو أقل . كان هذا الصنف موجودًا لكنه كان قليل  
العدد قليل الجراءة خافت الصوت ؛ وكان ما يسمى بالرأي العام  
ضدهم إذ ذاك في الجلة ؛ كان يدعمهم وشأنهم ماداموا منزوين ،  
لكنهم كانوا إذا حاولوا الظهور ولو باسم الإصلاح والتجديد لقوا  
منه عنتًا غير قليل

والرأي العام ليس وليد نفسه ، ولكنه وليد بيئته . ولقد  
كانت البيئة في ذلك الحين لا تزال دينية الروح إسلامية النزعة  
إلى حد كبير ؛ لكنها الآن قد تغير روحها وانمكست الآية فيها  
في المدن ، ويوشك هذا التغير أن يتخطى المدن إلى القرى على  
أمواج الراديو وأفلام السينما وصفحات الصحف ولو بالتدريج .  
فهذه الثلاثة هي أهم مكونات البيئة اليوم ، وقليل منها الآن  
ملا يمكن أن يوصف بأن فيه من الإسلامية كثيرًا أو قليلًا  
فالسينا أكثر أفلامها مصنوع في الغرب وأقلها مصنوع  
في الشرق . ومع أن هذا الأقل مصنوع في مصر التي تطمع أن  
تترجم الأقطار الإسلامية إلى الخير والبر والهدى ، فإنه وذلك  
الأكثر مصنوع في الغرب سواء في مجافاته للدين ومناقضاته لما  
يليق ، بل قد يبدد الشرق الغربي في ذلك كمادته في الإفراط  
والتفريط . لا يكاد الوالد الحريص يجد بين جميع ما يعرض في مصر  
من الأفلام ما يمكن أن يروح عن أولاده بأخذهم إليه من غير

أكثر من صالحه ، وهو على أى حال كان إلى الآن عاملاً على تمييز البيئة في الأقطار الإسلامية تمييزاً بعيداً عن الإسلام وغير الراديو والسينما من مكونات البيئة الحديثة بتحوّلها وإن لم يبلغ مبلغها من القوة والديوع . ولعل أهم هذه هي الصحف وهي مثلهما قوة هائلة تعمل في كيان البيئة ، إما بتعمير وإما بتدمير . ولقد كان عهد ليس للصحف في البيئة الإسلامية من أثر ، ثم جاءت الصحف وعرفها الناس لكنها في أول عهدها لم تكن تجرؤ على الخروج عن مألوف الناس من فضيلة ودين . بل لقد كانت الكلمة العليا بين الصحف إذ ذلك للإسلامية منها أيام كان المؤيد واللواء ليس لهما في ميدان الصحافة قريع . وكانا رحم الله أيامهما وعوض المسلمين خيراً منهما مهما اختلفت بهما سبل السياسة لا تختلف بهما سبيل الدين . فكانا لا يكادان يشبان الخطر على الدين من ناحية ولو من بعيد حتى يهيا لاقائه وتنبية الناس إلى الاستعداد له قبل وقوعه . ثم ذهبت بهما الأيام فكانتا ذهبت بذهابهما ربح الدعوة لله والمنفعة عن الإسلام . وكثرت الصحف حتى صارت عشرات بعد آحاد ، لكنها كانت حرباً على الإسلام في غالبيتها . كانت بين مهاجم له ومعين عليه بالسكوت أو بنشر الرد الضعيف بعد الهجوم العنيف ؛ وقبل بينها ما كان يهب للدفاع حيناً بعد حين . أما الثبات في الدفاع والصدور للخصم صمود المؤيد مثلاً لريتان وهاتوتو فلم يكن في القائم على الصحف الإسلامية من يحشم نفسه ذلك . وكان من أثر توالي الهجوم وتلكؤ الدفاع أن دخل الخصم من حصون البيئة الإسلامية حصناً بعد حصن . فذهب الحجاب وكانما ذهب بذهابه الحياء ؛ وجاء السفور وكانما جاء بمجيئه الفجور . وكان الفجور يكاد يكون وقتاً على الرجال فأصبحوا بعد أن فشا الرقص والاختلاط يقلبهم عليه النساء

إنا لله . لشد ما غفل عن دينهم المسلمون حتى أتوا من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ! ماذا كان عليهم لو أنهم عملوا بدينهم وأطاعوه فكفوا أنفسهم كل هذه المصائب والويلات ؟ إن الرجل اليوم ليأمر ابنه فلا يسمع له ، ولا يجرؤ على أن يأمر ابنته خوفاً من أن تجترى وتجاهره بالعصيان ، كأنما إقراره إياها على خطأ لا يجعلها ترتكب غيره من الأخطاء ، أو كأنما مجاراته إياها فيما لا يرضى الدين سيجنبها الهوة التي لا بد أن يتردى فيها كل من يعصى الدين

أن يرضهم بذلك إلى تلويث الدهن وتدنيس الخاطر . بل لقد أصبحت السينما وخصوصاً ما تخرجه مصر من أفلامها خطراً حقيقياً على الأخلاق في هذا القطر وما يتأسي به من الأقطار . فلقد كانت هناك مسارح للتهتك والخلاعة منزوية في أماكنها التي كنا نحذرنا ونحن صغار ، فأصبحنا وليس بغنى التحذير من مفسادها شيئاً بعد أن أعطتها صناعة السينما قوة التكاثر كما تتكاثر الجرائم فصارت تنتشر بأفلامها في المدن والقرى ، تنشر عدوى الفساد الخلق كما تنتقل الجرائم فتنتشر عدوى الأمراض

وما يقال في تأثير السينما يمكن أن يقال مثله في تأثير الراديو مع اختلاف في المقدار . فهو كالسينما من العوامل الفعالة الطارئة على البيئة الإسلامية ، وهو جدير أن يغير منها إما إلى الخير وإما إلى الشر ، لكنه الآن إلى الشر أقرب . فإنك إذا استنيت ما يذاع من القرآن الكريم والقليل من محاضرات الإرشاد ، تجد الغالب على إذاعته المجون والخنوثة والاستهتار . خذ بيدك أى برنامج عادى للإذاعة في أى يوم واحسب ما للزل فيه وما للجد ، تجد ما للزل أضماض ما للجد ، وتجد أكثر هزله هزلاً غير برى ، بل بمض جده جداً غير برى كذلك

على أن المصيبة بالراديو أعظم من المصيبة بالسينما من بعض الوجوه ، فإنك تستطيع أن تتقى شر السينما في خاصة نفسك بالعود عن الذهاب بأولادك إليها ، وإن كان في ذلك شيء من العنت . لكن ماذا تصنع وهذا الذي تهرب منه بجرمان نفسك من تسلية السينما يدخل عليك وسط دارك من الراديو وأنت بين أهلك وذويك ؟ إن مجون الریحاني وأضرابه وخلاعة مصابني وأضرابها تلاحق المسلم بالراديو في مقر داره . وإذا أمكن التحرز من ذلك إلى حين بإغلاق الراديو فلا بد أن يأتي يوم يمل الإنسان فيه الرقابة ، ويترك الراديو كالورد الخبيث مل الرامح ذود القطيع عنه . على أن المسألة ليست مسألة فرد أو أفراد يعرفون الخطر ويستطيعون توقيه بشيء من كبت الرغبة وضبط النفس ، ولكن المسألة مسألة الجماهير التي لا تستطيع تمييزاً ولا امتناعاً . فإذا لم يكن ما يذيع الراديو سليماً طيباً كان الراديو شراً ووبالاً على الناس ينقلهم خلسة عما ألفوا من الخير إلى ما لا يريدون أن يألفوا من الشر ومذاهبه ، وينبه فيهم من نزعات السوء ما لم يكن لولا الراديو ليتنبه فيهم . والراديو الآن يخلط الصالح بالسوء إلا أن سيئته

لقد كانت البيئة الاجتماعية يغلب عليها الشر قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام طفق يبحث منها أصول الفساد ، وطفق يصلح ويهذب ويطهر حتى ذهب عنها الرجس ، وشاع فيها الطهر ، وعم فيها النور ؛ وأصبحت من ينشأ فيها ينشأ سليماً صحيحاً قوياً كالزراع في التربة الطيبة يأتيه النور من كل مكان . ثم أراد الله الذي يعلم أن الانسان ابن بيئته أن يديم للانسان نعمة إصلاحها فأقام حولها وفيها الحدود حداً بعد حد كحصن اجتماعي بعد حصن يقبها تطرق الفساد . فجلد على الخمر ، وجلد ورجم على الزنا ، وحرم الخلو ومنع الاختلاط إلا لضرورة ، واحتاط في المنع فضرب الحجاب . وقطع يد السارق بعد أن منع الربا ، وأوجب الزكاة . فكانت بيئة طاهرة زكية يزكو فيها النشء كما يزكو النبات في البلد الطيب . فلما أصلحها للناس أمرهم أن يحافظوا على صلاحها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود ، وأزل عليهم ( ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين ) فأحسنوا وأطاعوا ما أقام بينهم الرسول . فلما علم صلى الله عليه وسلم أنه مغارقهم عن قرب حج بهم حجة الوداع وخطبهم خطبة الوداع التي لا يكاد يحفظها الآن مسلم :

(أيها الناس اسمعوا مني أين لكم فاني لأدرى لعل لا ألقاكم بعد عابي هذا في موقفي هذا

أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كرامة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجمين بمدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وستة نبيه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...)

هذا بعض ما عهد الرسول به إلى المسلمين في ذلك الموقف العظيم . فلما قبض صلى الله عليه وسلم أحسن المسلمون خلافته وأحسنوا السمع والطاعة لله ورسوله وللخليفة الأول من بعده ؛ وسار فيهم رضى الله عنه متأسياً بالرسول ، خاملاً بإمام على الحق ضارباً لهم المثل بنفسه ، جامعاً طاعة الله أول الأمر وآخره

(أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقوامكم عندي الضميف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى أخذ الحق منه )

فلما قبض رضى الله عنه خلفه في المسلمين من كان يرعاهم رعى الأم ولدها ، ويذودهم عن المهالك ذود الراعى غنمه ( اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة ، فانكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية . إن هذا الحق ثقيل مرهق ، وإن الباطل خفيف وبيء ؛ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أوردت حزناً طويلاً ) . وكان أكبر ما يحرص عليه رضى الله عنه ألا يتطرق إلى البيئة الاسلامية خلل أو فساد وأن يبق ضعيف النفس من المسلمين شر المغريات ، حتى أنه لما سمع للتمنية تتمنى نصر بن حجاج دعا به ، قلما رآه نفاه من الأرض ، وأمر ألا يغيب رجل في الغزو عن بيته فوق أربعة أشهر كما أمر ألا ينزل المسلمون منازل المترفين في البلاد التي يفتحونها مخافة أن يخرجوا من أخلاقهم شيئاً فشيئاً إذا اختلفت بهم البيئات

ثم كان أن جاءت الفتن وتغير الحال ووجد الشيطان سبيلاً إلى تلك البيئة الاسلامية المصونة عن طريق الهوى . وترخص الخلفاء بعد عهد الراشدين واحتالوا على الجمع بين هوامم وبين الدين ، وهيات ؛ فكان منهم من امتدح وتمنى السادح عليه ألا يُجد في الخمر فقال ذلك حد من حدود الله لاسيلا إلى إبطاله ، ولكن ساحتال لك فكتب إلى عامله على بلد الشاعر المهتك : من أنك بآن هرمة سكران فاجلده مائة واجلده ابن هرمة ثمانين ؛ وظن ذلك الأحمق أنه لم يبطل حد الله حين أفتاه شيطانه بهذا وقد أبطله بالفعل أيما إبطال إذ كان الناس يرون على ابن هرمة مطروحاً فلا يمسونه ويقولون : من يشتري ثمانين بمائة ؟ ومع ذلك فقد كان ذلك الخليفة العباسي يوصف بفقته ويلحق بالعلماء

مثل هذا النوع من الحكام وهذا الضرب من الاحتيال على إبطال أحكام الله حين تخالف منهم هوى أو شهوة هو الذي أفسد البيئة الاسلامية بعد إصلاحها ، ففسد بفسادها الناس ، فذهبت عنهم العزة وذهب ملكهم عن أقطار استعمرها آباؤهم بالدين وحسن الطاعة لله والنزول على أمره . ولن يستقيم للناس حال حتى ترد البيئة اسلامية خالصة كما كانت ( ويومئذ يفرخ المؤمنون بنصر الله ) محمد احمد الفهراري